

٤ - سلوك أطرنا تجاه المشكل الفلسطيني

"ان الغموض الايديولوجي لم يكتس أهمية قصوى ولم تكن له مضاعفات دراماتيكية بالنسبة لاي بلد مستعمر كما هو الشأن بالنسبة لفلسطين . وخلافا لجميع البلدان المستعمرة في افريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية ، فإن شعب فلسطين قد مر بمرحلة اضافية من النضال والتضحيات بالنسبة لجميع حركات التحرر الوطني ، ومن غير أن نعد كفاحات ما قبل ١٩٤٨ وضمن ٢٠ سنة المنظم من طرف وجود هذا الشعب نفسه ، فان هذا الاخير ما فتئ منذ ٤ سنوات يخوض معركة مسلحة من أجل أن يقنع قبل كل شيء الاوساط المدعوة بالمعادية للاستعمار ، بأن فلسطين هي وطن وشعب ، وأن اسرائيل ليست سوى احتلال من النوع الاستعماري ."

"(٠٠٠) ولنذكر هنا أنه ينبغي تجلية مظاهر الايديولوجية الرأسمالية البرجوازية الغربية في مفاهيم وتفكير وسلوك أغلبية اطارات شمال افريقيا ذات الثقافة الفرنسية فيما يخص المشكل الفلسطيني . وعلينا أن نشير أولا الى أننا قد تلقينا هذه الثقافة عبر أدب الاستعمار والاستعمار الجديد المتعلق بالتقدم ثم التخلف . ويمكننا القول بالتالي أن المفاهيم والتحليل المطبقة على المشكل الفلسطيني تشكل في الحقيقة جزءا لا يتجزأ من السلوك الثقافي والعملي لكل مثقف في شمال افريقيا ازاء التحرر والاستعمار الجديد بصفة عامة ، وهذا الارتباط لا يمكن أن يظهر جليا الا اذا دعما التحليل بالامثلة المحسوسة التي توضح باللموس درجة "حالية" (Actualité) الحقائق الزائفة التي تشكل فكر الاستعمار الجديد .

ولنذكر أولا أن الايديولوجية البرجوازية والايديولوجية الغربية بجميع العلوم الانسانية المرتبطة بها ، هي ايديولوجية وصفية صرفة ، وهي كوليده وكبنية فوقية لاسلوب الانتاج الرأسمالي ، فان وظيفتها هي تبرير وتزكية هذا الاسلوب الى درجة أنها تقتصر على تحليل مظاهره الخارجية أو على دراسته قطاعا بقطاع كي تتلافى تفسير مبدئه الاساسي والحقيقي وعلاقات الاستغلال التي يرتكز عليها كنظام شامل . ويرجع الفضل الكبير لماركس الذي طرح وفضح الطبيعة الوصفية المحضة والمضللة لهذه الايديولوجية ، انطلاقا من هذا المبدأ الاساسي : "ان كل شكل من أشكال البروز هو نوع من النفاق" . وعلى أطرنا أن تفكر في هذه القولة التي تفيد أن الفكر البرجوازي يركز انتباهه على الشجرة لكي يخفي الغابة ، وذلك هو قانون الغاب الرأسمالي ، لكن يبقى أن هذا الفكر مثل نمط الانتاج الرأسمالي الذي ولده هو نظام متجانس ، له منطقته الخاص والذي يتواءم باستمرار مع المعطيات الجديدة مع احتفاظ بمنطقته وتجانسه الخامين .

اوليست هذه الايديولوجية الوصفية هي التي لقت لنا بانتاجاتها الوضعية وذلك عبر التعليم الاستعماري المدعم بأداب الاستعمار الجديد حول التخلف . وحتى نوضح أكثر ، وكى لا نبتعد على موضوعنا ، ينبغي أن ننطلق من حدث ليست له أهمية ، ولكنه يوضح الى أي مدى استطاعت الحيل والاكاذيب الاستعمارية (القديمة بـ٥٠ سنة) أن تنظلي على المثقفين المغاربة . "فقدما ثانوية آرزو" الذين اجتمعوا في موءتمر عقد في مستهل الصيف لم يقبلوا أن يتخذوا موقفا من المشكل الفلسطيني الا على أساس اعتباره مشكلا من مشاكل التحرير في العالم ، مثل أنغولا والموزامبيق . . . الخ . وليس هذا ليسجلوا أن الامر يتعلق بمشكل استعماري ، ولكن على النقيض من ذلك للتأكيد من أنه مشكل "عربي" لا يهمهم مباشرة أكثر مما تهمهم قضية غينيا المدعوة بالبرتغالية . وهو مثل آخر يجسد الانتهازية في مرحلتها الاولى . ولكنه أيضا وبالاخص ، يبرز الى أي حد استفادت الصهيونية في بلادنا من جميع أشكال الفكر التي نشرها الاستعمار والى أي حد تستطيع الصهيونية أن تكسب صفة الحياء ، بل وتحالف أطر بلداننا الموضوعي . ولكن النتائج الخطيرة والعامة للفكر الرأسمالي الاستعماري هي احتقارنا لانفسنا باعتبارنا أمة عربية ، ونعت العربي كعربي بأوصاف وحقائق قد خلقتها الامبريالية في الواقع وعملت على ترسيخها بواسطة عملائها المحليين . فمن هنا ، لم يسمع التعاليق المربية والمتشككة التي كان يطلقها المثقفون المغاربة عندما يستمعون الى بيان عربي يعدد الخسائر الصهيونية . وعندما ننبههم الى أنه لا ينبغي دائما تصديق الانباء الصهيونية ورفض

أنباء الدول أو المقاومة العربية، لان ذلك يعني ثقافيا الوقوف الى جانب اسرائيل، فان جوابهم الذي لا يتغير هو أنه "لا يمكن لي أن أصدق منذ ١٩٦٧" . ومن هنا نرى جريدة "لوموند" تجسم رأى هو "لا الكوادر" وتعلمهم الواقعية والاعتدال" وتغرس فيهم رغبة الانتهاء من (المشكل) والوصول الى السلام، كما أنها تنشر وتشجع المناقشات حول الحل أو حظوظ حل ما تسميه هذه الجريدة بـ"النزاع الاسرائيلي العربي" . وهذا المثل الثاني يبرز الى أى حد تستفيد الصهيونية، ليس فقط من الافكار التي غرسها الاستعمار، ولكن أيضا من كل ارتباطات البلاد الثقافية والتقنية واللغوية بقوة المستعمر القديمة، وهي ارتباطات تسهل انتشار جميع وسائل الاخبار التي عملت الصهيونية على تجديدها أو مراقبتها بدرجة أو بأخرى (بصرف النظر عن علاقة السيطرة والاستغلال الاقتصادية التي تجعل من البلدان العربية نفسها قطاعا لتصريف الثروات المالية) .

فالحديث عن تأثير أكاذيب الفكر الرأسمالي/ الاستعماري على كوادرنا في موضوع مشكل فلسطين، معناه اذن طرح مشكل الاستعمار الجديد والامبريالية. ومن جهة ثلثية، فان درجة الالتزام الى جانب الشعب الفلسطيني على مستوى الحكومات والافراد تعكس مباشرة درجة العداء للامبريالية، لان الاحداث قد أرغمت الصهيونية على أن تظهر أكثر فأكثر بطبيعتها الحقيقية ليس فحسب بوصفها محمية من طرف الامبريالية أو أداة لها في الشرق الاوسط، ولكن أيضا كطابورها الخامس في جهات أخرى وخاصة في افريقيا .

وعلينا أن نعرف أن حركة التحرير في بعض بلدان افريقيا الاستوائية تناضل الان تحت شعار " ضد الامبريالية والصهيونية"، لانها تأكدت من أن "المساعدين التقنيين" الاسرائيليين يعملون فعلا في اطار الاستراتيجية الامبريالية التي تشكل اسرائيل أدواتها. وهذا يقودنا الى المكائد الاكثر حداقة وفعالية التي تكون جزءا من أدب الاستعمار الجديد كما هو الشأن في موضوع: التخلف .

فبواسطة هذا الادب، استطاعت اسرائيل أن تعرف بنفسها وأن تنشر "مساعدتها التقنيين" في مختلف البلدان . ثم ان أطر هذه البلدان التي تكونت هي الاخرى (مثل أطرنا) في مدرسة الايديولوجية والاقتصاد السياسي البرجوازي والوصفية الصرفة قد انخدعوا بالمظاهر، كما اقتنعوا بمنجزات اسرائيل كنموذج لحل المشاكل ولدائرة التخلف المفرغة الشهيرة، واهتموا بالشجرة التي تخفي الغابة متجاهلين أن استهلاك اسرائيل يفوق انتاجها بخمسة أضعاف، بفضل الثروات التي تفتصبها اسرائيل من بلدانهم، ويفضل الاطر التي جلبت اسرائيل معظمهم من هذه البلدان نفسها . فها نحن نرى أن الصهيونية تبدو أيضا أول مستفيد من كل الحقائق الزائفة حول التخلف التي نشرتها مجلة "العالم الثالث"، أداة الاستعمار الجديد الاكثر دقة وفعالية وايداء (والتي تضم ادارتها صهاينة مشهورين) وهذه الاداة هي المثل الصارخ على قدرة تكييف ايدولوجي الاستعمار الجديد مع نمو القوى التقدمية، ولكي تتمكن هذه الاداة من اقناع كوادرنا و"فنيينا"، فانها تعلمهم الواقعية والمراحل الضرورية للخروج من "حلقات التخلف المفرغة" وتوضح في الان عينه أن هذا الخروج يستلزم الاصلاح الزراعي وبعض التأميمات. وهذه الاساليب تنطلق من نفس المبدأ وتلتقي في جوهرها مع مرونة ايدولوجي الصهيونية المتواصلة مع نمو الافكار المعادية لاسرائيل، فهم يقترحون لجان السلام ويشجبون نزعة موشي ديان التوسعية... بهدف صيانة الجوهر، أي وجود اسرائيل كدولة. لذلك، فانهم يطرحون، طبعاً، المشكل باعتبار أنه أزمة "الشرق الاوسط" بين البلدان المتجاورة، لا على أساس أنه قضية تحرير بلاد. كما أن هو "لا ايدولوجيين ينظرون الى تدخلات المشكل الفلسطيني والمقاومة الفلسطينية من جهة، وعلاقات اسرائيل بالدول المجاورة من جهة ثانية على أنها "حلقات مفرغة"، وكذلك تشابك الفلاحة والتعليم، وميزان المدفوعات لبلد متخلف. ثم أن انقسام العرب وارتجاليتهم يكونان بالنسبة للمشكل الفلسطيني ما يكونه النمو "الديمقراطي الراكض" أو المتصاعد بالنسبة للتخلف، أي المبرر وجواب المرور. وهذا ما يؤدى بنا الى نفس المبدأ المعروف وهو ضرورة العودة الى أنفسنا لمراجعتها أولا ولتصفية مشاكلنا .

وهذا التحليل ينم تماما عن تكوين وعقلية "التقني" الذي يرغب بكل اخلاص في التقدم، فكيف يتسنى لنا أن نشك في نية من يقترح تأميم القطاعات الحساسة في الاقتصاد والاصلاح الزراعي اذا لم

نتساءل حول هذه القطاعات الحقيقي، ونطرح بصفة عامة مشكل استغلال هذا البلد! ولا شك أن تأميم السكك الحديدية يساعد الرأسمال الاستعماري ما دام هذا الأخير يواصل استغلاله للمواد الخام ويستفيد من تصدير المنتجات الصناعية، في حين تبقى ضحايا هذا الاستغلال نفسها هي التي تؤدى ثمن العجز، أي قسطا من مصاريف استثمار البلاد العامة. كما أننا لا نشك أن "الإصلاح الزراعي"، أي توزيع أراضي الاستعمار، لا تضايق مطلقا الرأسمال الاستعماري ما دام يحصل على نفس المنتجات بأثمان منخفضة جدا، إلى جانب احتفاظه في نفس الآن وعلى المدى البعيد بهذه الوضعية. وينطبق هذا كذلك على الإصلاحات والحلول ذات المظهر الوطني والصيغة التقدمية، لأن المشكل الحقيقي والجوهري لم يطرح، أي مشكل للروح الاستعمارية التي تدعم النظام الاقتصادي والاجتماعي المنعوت بالتخلف.

إن كل الجهود التي يبذلها أيديولوجيو الاستعمار الجديد تهدف إلى تشويه المشكل، وإقناع ضحايا الاستغلال الامبريالي بالبراهين "التقنية" والارقام المنتقاة بضرورة العودة إلى نفسها أولا ومراجعتها. حتى أن كلمات مثل "الواقعية"، و"الموضوعية" - المزعومة علمية - والعقلانية، التي هي أساس هذا الأدب الاستعماري، أخذت تتحول بالنسبة لكوادرنيا - التقنيين - إلى أسس ثابتة لكل تحليل وحكم يصدر عنهم. ورأينا مثقفا عراقيا يكتب دراسة بالارقام يدعم فيها الرأي القائل أن على العرب - قبل أن يحاوروا إسرائيل أو يصفوها - أن يحلوا مشاكل "التخلف" (وطبعا، فإن هذه الدراسة قد نشرت في أحسن مكان من جريدة لوموند). وهذا الرأي بعيد كل البعد عن أن يكون مجردا أو منفردا، لأن المشكل عندما يطرحه "تقني" ويدعمه بالارقام، مع اعتباره لدعم الامبريالية الامريكية الغير مشروط لإسرائيل واعتباره قوة التغلغل الصهيوني عبر العالم، فذلك يدل على موقف الواقعية، موقف الانهزامية الذي يمتاز بالمنطق. وهذه الطريقة الواقعية هي موقف من يعتبر النضال ضد الامبريالية غير وارد ولا مطروح بالنسبة إليه، أي موقف من يشاع الايديولوجية البرجوازية الوصفية، ويرى أن الدول العربية تحارب إسرائيل باعتبارها (أي إسرائيل) كيانا مستقلا وقائم الذات، وليست كقاعدة من قواعد الامبريالية الأخرى.

ولهذا، فإن الحضور الثقافي والايديولوجي للاستعمار الجديد والصهيونية في بلداننا يكونان شيئا واحدا، ويؤثران مباشرة على تفكير مثقفينا. وأن موقف هؤلاء إزاء المشكل الفلسطيني لا ينفصل عن سلوكهم تجاه المشاكل الداخلية للتحرر الاقتصادي والاجتماعي، ولا ينفصل بالمثل عن النضال ضد الامبريالية وعملائها. ويجب القول أن هذا التأثير يكون أكثر فعالية، عندما يمارس في المجال الذي استطاعت فيه الظروف التاريخية والجغرافية وأصداء الأحداث الخاصة بالشرق الأوسط أن تحدث الالتباس وتزرع اللامبالاة.

مقتطفات من مقال للشهيد عمر بنجلون

عمر الفلسطيني

الاشجار تموت واقفة

كلمة مكتب منظمة التحرير الفلسطينية بالرباط بمناسبة الذكرى الاربعية لاستشهاد عمر

ماذا يمكن أن نقول نحن الفلسطينيين في عمر بنجلون! .. وكيف نستطيع أن نعبر عن مصابنا في فقدانه. كثيرون هم الذين تألموا لفقد عمر بنجلون .. وكثيرون هم الذين أحسوا بعظم الخسارة بفقدانه .. فتحسروا وبكوا وتحذثوا عنه. لكن خسارتنا نحن في عمر، كبيرة جدا.

فقد تعرف علينا، على قضيتنا، على الآلانا وآمالنا، قبل أن نتعرف عليه .. ناضل من أجل قضيتنا دون وقبل أن نتعرف عليه شخصيا .. وعندما تعرفنا عليه، وجدنا وكأننا نعرفه لسنوات .. بل أحسنا أنه ناضل منا، منذ زمن بعيد.

ومشى معنا على الدرب .. أعطى لنضالنا وقتا وجهدا وما لا قل أن يعطيه غيره. فعندما بدأ التفكير في تأسيس الجمعية المغربية لمساندة الكفاح الفلسطيني عام ١٩٦٨، كان من أشد المتحمسين لها، وبذل كل ما في جهده حتى رأت النور. وفي محيط الدار البيضاء، تحمل مسوءولية في فرع الجمعية هناك، وشارك في العديد من حملات التوعية وحملات جمع التبرعات التي كان ينظمها فرع الجمعية.

وعندما أحس أن حملات التوعية والتعريف بالنضال الفلسطيني غير كافية، عمل على اصدار جريدة خاصة بفلسطين - بل و سماها (فلسطين) .. وأعطاه فكره وجهده وأنفق عليها من ماله (القليل) الكثير، حتى لم يعد لديه ما ينفق، فتوقفت عن الصدور.

وعندما أصدر جريدة المحرر، جاء الينا ووضع الجريدة بكل صفحاتها تحت تصرفنا قائلا: (ها هي جريدتكم)، وأصر على أن يكون لنا فيها ركن يومي نكتب فيه ما نشاء .. ولما اخترنا أن نأخذ صفحة أسبوعية في المحرر، أسوة بشقيقتها جريدة العلم، كان يكتب بنفسه المقالات والدراسات والافتتاحيات في الايام الاخرى، عن شعب فلسطين وثورة فلسطين .. رائده الحق، ووحيه ايمانه الذي لا يتزعزع ولا يخضع للحسابات والهواجس .. مواجهها أحلك الازمات والشدائد ببسمته المعهودة وتفاؤله الغامر.

وفي داخل حزبه، في الاجتماعات الخاصة والعامة .. في كل الظروف والمناسبات .. في الداخل والخارج، كان عمر خير داعية لدعم وتأييد الثورة الفلسطينية .. وحتى المؤتمرات التي كانت تعقد لمواضيع اقتصادية أو قانونية أو أى موضوع كان، كان عمر يحولها الى مؤتمرات خاصة بفلسطين. وكان يعمل على أن تصدر قرارات وتوصيات خاصة بالقضية والثورة الفلسطينية.

كان عمر ينطلق في تفكيره وعمله، من أن القضايا العربية مترابطة بشكل لا يمكن فصلها عن بعضها البعض .. كان يراها قضية واحدة متشعبة، لتشعب الاقطار العربية. فكان يرى أن النضال في أى قطر عربي، هو نضال قومي وعام .. وبالتالي فهو يعتقد أن نضاله من أجل قضية فلسطين، نضال من أجل الشعب المغربي .. أى أنه لم يكن يمارس النضال من أجل فلسطين ثرفا أو مسايرة أو مباهاة .. بل كان يمارسه عن ايمان وقناعة، بصدق واخلاص.

رجل هذا دأبه، وهذه مسيرته، كيف يمكن لنا نحن الفلسطينيين أن نعبر عن مصابنا في فقدانه.

اننا نقول فيه ما نقوله دائما عبر مسيرتنا النضالية: "اذا اردت نارا كبيرة، فاعطها الحطب الجيد". نقول فيه ما نقوله عندما يسقط شهيد عزيز علينا.. عهد لك بأن الثورة التي كرست نفسك من أجلها، ستبقى مستمرة حتى النصر.

وعزاؤنا فيك يا عمر، أن الجدوة التي أوقدتها لن تنطفئ وأن الشعلة التي حملتها لن تسقط.. فقد خلفت وراءك رفاقا وتلاميذ سيحملون الرسالة بأمانة واخلاص، حتى يصلوا بها الى الغاية التي كنت تنشدها.. وأن الاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية الذي كان عمر تلميذا ومعلما في مدرسته، سيخرج الاجيال تلو الاجيال من التلاميذ والمعلمين، الذين يخلفون عمر، ويتابعون السير على خطاه وعلى هدى مبادئه.. وأن الشعب المغربي الذي أنجب عبد الكريم الخطابي والمهدي بنبركة وعمر بنجلون، سينجب أبطالا آخرين يحققون للشعب المغربي ما يصبوا اليه وطنيا وقوميا.

وانها لثورة حتى النصر.